نشأة اللغة وتطورها

للدكتور عبد الحميد سند الجندي
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

لمحة تاريخية

(١)

اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . وأصلها لَغوة بزنة فَعلة بفتح الفاء ، من لَغوْتُ بمعنى تكلمت . وتجمع على لغات ولُغين بضم اللام وكسر الغين ، والنسبة اليها لُغوى بضم اللام ، وفتحها خطأ .

وقد اختلف العلماء فى نشأة اللغات ، وهم فى ذلك فريقان ؛ فريق يرى أنها وحى وتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، علّمها الانسان الأول . وكأن أصحاب هذا الرأى يتوهمون أن الانسان حين خلق كان الوجود فى حالة عماء وسكون مطبق ، فلم يكن يسمع صوتا ولا يحس من أحد . فكان من الضرورى أن يُلهَم لغته الأولى التى هى بمثابة الأداة الجوهرية فى الاحتفاظ ببقاء ذاته .

وهؤلاء لا يكتفون بهذا القدر الضرورى من الالهام ، ويزعمون أن الله علم الانسان لغات البشر كلها ، ما خلق منها وما لم يخلق ، وهى الآن تُعدُّ بالآلاف .

ومن أصحاب هذا المذهب أفلاطون[١] ، وتابعه ابن فارس[٢] والأشعرى ، وغيرهم . وهم يستدلون على ذلك بقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، أى ألهمه لغات العالم[٣] . وجرى على غبارهم كثير من المفسرين كالقرطبى والنسفى والبيضاوى وغيرهم .

---

(١) تاريخ الفلسفة القديمة ليوسف كرم ص ٢١٠ .
(٢) الصاحبى فى فقه اللغة لابن فارس ص ٣٨
(٣) انظر مقدمة تاج العروس للزبيدى .

ونحن نرى أنه لا فائدة فى هذا الالهام ، ولا داعى الى تعليم الانسان الأول لغات أهل الدنيا لعدم الحاجة اليه ، ولتعذر الاستفادة منه فى ذلك التاريخ المفقود. ويزيد فى ضعف هـذا الدليل أيضا تأويل الآية على وجه آخر ، وهو أن المراد بالأسماء فى الآية الكريمة أسماء الملائكة . لا أسماء ولغات أهل الدنيا .

ويرى غير هؤلاء أن اللغة — وان كانت قد حدثت مع الانسان فى أول نشأته — تعتبر مع ذلك من أنواع الوجود الطارئة عليه . فهى خاضعة لما تخضع له الحوادث من التغير والتدرج فى طبقات النمو ، والتحول فى أدوار التماثل الى الكمال ، وأنها بناء على ذلك وقفت بالتدريج عند درجات الحدوث من الطفولة الى ما يليها من صفات الكائنات الحية ، وكانت نتيجة لمواضعات مختلفة مبنية على دراسة تقليدية طويلة . وأهل هذا الرأى لا يأبَوْن التسليم بأثر الالهام فى تكوين اللغة على هـذا النحو الفطرى ، ولكنهم لا يفهمون أكثر من أنه الاقدار على الارتجال والتحويل ، أو التنويع فى التقليد والمحاكاة بقدر ما فى الانسان من قوة التمييز العاقلة التى ترفعه على الأقل عن طبقة الحيوان الأعجم .

فالانسان الأول عندهم طفل تاريخى بدأ فى أغلب الظن لغته الأولى بالأصوات الفطرية الدالة على الانفعالات الوجدانية من الرضا والغضب والطمأنينة والفزع واللذة والألم .

(٢)

وقد بدأ الانسان وسيلته التفاهمية بهذه الأصوات الفطرية وحدها[١] ، ثم تدرج بعض الشىء ، فصحبها بالاشارة الحسية توسعا فى التفاهم بها ، الى أن صار يدل على الشىء بالاشارة الى أوصافه ، أو الى الأظهر منها كما يفعل الأخرس الآن فى تعبيره عن الرجل بامرار يده على شـاربيه ، وعن المـرأة بتكوير يده ووضعها على صدره .

ثم أخذ الانسان بعد ذلك يحاكى الأصوات المختلفة التى تنقلب كل حين على سمعه ، وبين يديه ... من حفيف الريح ، وهزيم الرعـد ، وخرير الماء ... ومن أصوات كثير من الحيوان يعبر بما يسمعه من الصوت عن مُحْدثه ؛ كما يسمى

(١) الخصائص لابن جنى ١/٣١

الأطفال عندنا كثيرا من الحيوان بما يسمعونه من أصواتها ، كأن يقولوا عن الدجاج « كاكا » ، وعن الهرة « نونو » ، وعن الشاه « ماء ماء » ، وهكذا . ثم تكون له من تلك الأصوات مقاطع صوتية متنوعة استطاع بفضل فطرته أن ينحت منها اللغة الضرورية المسايرة لحاجات الحياة الأولية . ولما استقام له ذلك حكى على أمثاله ، وتابع ما يتجدد له من الحاجات بالوضع تارة ، وبتقليب الدوال القديمة تارة أخرى ، حتى استطاع أن يستغنى بما حدث له من الألفاظ تدريجيا عن المحاكاة والاشارة ، وان كانت الوراثات المتعاقبة أبقت فى لغات الانسان المتمدين بعض ما يدل على استعانته بالاشارة فى تكوين لغته الأولى ؛ كما يشاهد فى أجناس المتكلمين اليوم من تزوية الوجه ، وتقطيب الجبين ، والاشارة باليد ، والايماء بالحاجب واللحظ واللسان ، مما هو معروف .

وقد كان هذا الدور الاستقلالى للألفاظ على دهور متطاولة ؛ كان اللفظ الواحد يقع فيها على المعانى الكثيرة من غير تمييز بين الواحد والكثير والذكر والأنثى والاسم والفعل . كما كان ذلك شأن الانسان فى بقية فروع الحياة الأخرى ؛ اذ كانت القطعة من الجلد تقوم له مقام اللباس والفراش والآنية وغير ذلك ، الى أن استحدث لكل نوع من هذه كفاية خاصة وسمى لها أداة جديدة . ومر ذلك التسلسل اللغوى أيضا بأجيال وقرون انحنت عليها أجنحة العصور ، حدث له فى خلالها التمييز بين الأسماء والأفعال ، ودخلت فى لغته الحروف والأدوات ، وتولدت بعدها مميزات الجنس والعدد ، وبعض صيغ الاشتقاق ، وانتهى نوع ذلك الكمال اللغوى فى بعض هذه اللغات بظهور الاعراب كما فى اليونانية واللاتينية القديمتين . وظهرت أصول اللغات فى أسرة الأمم الكبرى من أبناء نوح بعد الطوفان حين بدأ الزمان يقلب أول صفحة من تاريخ البشرية المعروف .

والى هذا القول بالمواضعة يذهب أكثر المحققين من اللغويين وعلماء الأصول[1] ، واليه ذهب من علماء العرب أبو على الفارسى من علماء القرن الرابع

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، ونشوء اللغة العربية واكتمالها للأب انستاس مارى الكرملى . وتاريخ اللغات السامية لاسرائيل ولفنسون .

الهجرى ، وتلميذه أبو الفتح عثمان بن جنى فى خصائصه . وقد عقد الأخير فصلا فى كتابه لبيان أصل اللغة : أالهام" هى أم مواضعة ؟ ، وقال فى آخره بعد أن شرح المذهبين : « وان خطر خاطر فيما يعلق الكف باحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها قلنـــا به ، وبالله التوفيق » . ولكنه جزم بهذا الرأى وهو أن اللغـــة تواضع واصطلاح ، وقد قرر ذلك فى أول هذا الفصل فقال : « هذا موضوع محوج الى فضل تأمل ، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح، لا وحى وتوقيف ... وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا الى الابانة عن الأشياء ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا اذا ذُكر عُرف به مسماه ليمتاز عن غيره ، وليستغنى بذكره عن احضاره الى مرآة العين » . وفى ثنايا كلامه يشير الى رأى ثالث يتفق مع أقوال علماء اللغات اليوم فيقول : « وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعة ؛ كدوى الريح ، وخنين الرعد ، وخرير الماء ، وشجيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ، ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد » . وهذا الرأى يتفق وما أشرنا اليه منذ حين .

هذا هو رأى اللغويين العرب القدامى . وقد انتهت أبحاث علماء اللغات اليوم الى أن اللغة كائن حى خاضع لقوانين النشوء والنمو ، فهى ليست توقيفا ووحيا ، كما أنها ليست اصطلاحا وتواطؤا بالمعنى الذى فهمه ابن جنى وأصحابه ، وانما هى اصطلاح طبيعى ينشأ عن محاكاة أصوات الطبيعة والحيوان . فاذا ما نشأت اللغة تضافرت عوامل شتى لنموها وتطورها حتى تبلغ مرحلة النضج . وقد لا تكون البيئة ملائمة لحياة لغة من اللغات ، فيؤول أمرها الى الاندثار والانقراض .

(٣)

وقد اصطلح اللغويون من علماء العصر الحديث على تقسيم ما عرف من لغات الأمم القديمة الى راقية وغير راقية[1] . وجعلوا من غير الراقية اللغـــة الصينية واللغة المصرية القديمتين . ويرجح بعض المؤرخين أن الصينيين والمصريين القدماء من أقدم الأمم التى نزحت من شواطىء الفرات قبل الطوفان ، وأن لغتيهما —

(١) محاضرات المستشرق الدكتور شاخت فى الجامعة المصرية .

فى سذاجتهما وقلتهما — ترجح اتصال نسبهما بقابيل أحد أبناء آدم ، وبخاصة وأن التوراة قد وصفت نسل قابيل هذا بالمهارة فى الصـــناعة . والمعروف أن الصينيين من أقدم من عرف من أمم الأرض بالحذق فى الصناعه .

ومن اللغات غير الراقية أيضا اللغات الحامية التى منها لغات زنوج افريقية وهنود أمريكا الذين هم على الراجح عبيد افريقيون استخدمهم الأسبان فى هذه الأصقاع بعد الفتح .

وأما الراقية فقد جعلوها قسمين : متصرفة ، وغير متصرفة . وغير المتصرفة هى اللغات الطورانية أو المغولية ، وهذه تشمل الفروع التى يتفاهم بها سكان البلاد التى تقع بين شرقى النمسا وآسيا الصغرى ، فبلاد التتر ، ومنها التركية . ومعنى عدم تصرفها أن الاشتقاق فيها يكون بالحاق أدوات لا معنى لها فى نفسها لأصول ثابتة لا تتغير ، مثل كلمة « ياز » ، ومعناها فى التركية الأصل الدال على الكتابة ، ويؤخذ منها الماضى بالحاق « دى » فيقولون « يازدى » أى « كتب » . وكذلك يفعلون عند النفى والجمع وغير ذلك ... يضيفون أدوات كثيرة وتبقى الكلمة كما هى .

وأما المتصرفة فهى السامية والآريّة ، ويقال للأخيرة أيضا « اليافثية » نسبة الى يافث بن نوح ، ومنها (أى من الآريّة) لغات جنوبى آســـيا التى منها « الســنسكريتية » وفروعها كالفارسية والهندية والأفغانية وغيرها . ومنها لغات أوربا التى أشهرها اللاتينية وفروعها من لغات فرنسا وايطاليا واسبانيا . ومنها اليونانية القديمة والحديثة . ومنها لغات روسيا والبلقان وانجلترا وألمانيا وهولندا والدانمارك .

وأما السامية[1] ؛ أى المنسوبة الى سام بن نوح ، فتمتاز بأنها لغات الكتب المقدسة من التوارة والانجيل والقرآن ، وبأن التمدين القـديم ظهر أولا بين المتكلمين بها فى بابل وآشور وفينيقية ، وهى اللغات البابلية والأشورية والكنعانية (الفينيقية) والآرامية والحبشية والعربية . ومن العلماء من يجعل اللغة الكنعانية أصلا للعبرية والآرامية .

---

(١) ارجع الى كتاب تاريخ اللغات الســامية لولفنسون .

اللغـــة العربية

(١) أصـــلها :

هى احـــدى اللغـــات التى أطلق عليها العـــالم « شلوتسر Schlozer » اسم « اللغات السامية ، معتمدا على جدول أنساب النبى نوح المذكور فى التوراة . ومن هذه اللغات أيضا البابلية والأشورية والعبرية والآرامية « ومنها السريانية »، والكنعانية والحبشية ، وقد انقرض جل هذه اللغات .

والواقع أن المؤرخين لا يستطيعون أن يجزموا برأى قاطع أو يأخذوا بدليل علمى يبينون به الأصل اللغوى الذى انشعبت منه هـــذه اللغات السامية التى تنسب الى أب تاريخى يقولون انه سام بن نوح . ولا عبرة بدعوى بعضهم أن الأصل السامى الذى تفرعت منه هذه اللغات هو اللســان البابلى القديم ، فان تلك ظنون أدى اليها وجود بعض المشابهة بينه وبين هـــذه العربية لا يبتعد أن يكون سببها هو قرب عهد اللغتين بالانفصال عن أصلهما المجهول . ومن الراجح أن هذه اللغات بجملتها من سامية وغير سامية يمكن أن تتصل فى سلسلة الحياة اللغوية بأصل واحد هو لغة الانسان الأولى التى لا تزال هى الأخرى مختبئة فى ضمير الزمن . وقد يُستأنس لهذا الاتصال بما بقى فى لغات العالم المختلفة من المشابهة فى بعض الأصول الضرورية ذات المدلولات الثابتة ؛ كضمير الخطاب ، فانه اذا تجرد من مميزات الجنس والعدد فهو حرف « التاء » فى أكثر اللغات .

وغاية ما توصل اليه الباحثون من تتبع نشأة اللغة العربية[1] أنه لا بد أن يكون قد دخلها فى أدوار التكوين شىء من الأصول السامية الأخرى كالحبشية والحميرية والعبرية وبعض الآرامية القديمة . وبيان ذلك أن عربية عدنان الذى ينتهى اليه عمود النسب العربى الصحيح قد ورثها عدنان عن آبائه الى اسماعيل أبى العرب المستعربة . وهم يقولون ان اسماعيل عليه السلام كان له لسان آخر عبرانى أو كلدانى ، نَسِيه وتعلم العربية من العرب العاربة « أى القحطانية » حين هاجرت قبيلة جُرْهُم الثانيـــة الى بلاد العرب ، ونزلت بمكة وامتزج بهم اسماعيل بالمصاهرة والجوار ، ونشأ منهم ومنه جيـــل عربى جديد هم العـــرب المستعربة أو الاسماعيلية . ويقولون ان أولئك القحطانيين أصـــلهم من الحبشة ،

---

(١) اقرأ كتاب اللغة العربية كائن حى لجورجى زيدان .

عبروا الى بلاد اليمن فعمروها وأضافوا الى لغتهم ما اقتبسوه من لغة أسلافهم من المعينيين الذين هم قبائل من بدو الآراميين ، أو بقايا أهل بابل القديمة نزحوا الى بلاد اليمن فعمروها ، وكانت لهم دولةقبل السبئيين والحميريين ، وهم الذين اقتبسوا الحروف الفينيقية التي انتهت بعد فى آخر صورها بالخط المسند أو القلم الحميرى المشهور .

واذن تكون هذه اللغة العدنانية مزيجا موروثا من هذه اللغات السابقة ، وقد تختلف عنها كما كان بعض هذه اللغات يختلف عن بعض . وقد تمثلت بعد ذلك فى المضرية الفصحى فى الوقت الذى ذهبت فيه الدولة الحميرية من الوجود حول أوائل القرن السادس الميلادى ، وحين أخذت نهضة قريش تمتد سطوتها على أكثر بقاع الجزيرة العربيـة ، وصارت العرب تقريبا بما أدخلوه على لغتهم من ألوان التنقيح وعوامل التهذيب الىوحدة لسانية عامة لا يشوبها الا قليل من الخلاف فى النطق الذى اصطلح العلماء على تسميته باختلاف اللهجات .

وتلك كانت العربية الفصحى ، لغة الشعر والنثر الجاهليين ، وهى لغة قريش التى نزل بها القرآن الكريم على أفصح العرب محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه . وكانت قبل الاسلام محصورة فى هذه الجزيرة العربية ، فامتدت بعد ذلك مع الفتوح الاسلامية بين أواسط الهند شرقا ومضيق جبل طارق غربا ، وبين البحر الأسود شمالا وبحر العرب جنوبا ، ووسعت أصقاع العالم المتمدين من ذلك الحين الى وقتنا هذا .

والواقع أن هذا الذى نقوله فى تطور اللغة العربية والأدوار التى مرت بها ليس مبنيا على الجزم واليقين . فمن العسير أن ندلى بأن هذا رأى قاطع ، لأننا لا نملك أسانيد مادية نعتمد عليها فى هذا التتبع وتنتهى بنا الى نتائج يقينية .

وقد لاحظ أسلافنا منذ العصور الأولى اختلافا واضحا بين لغة سكان شمال الجزيرة العربية أو لغة عدنان ، ولغة سكان جنوب الجزيرة أو لغة قحطان . فقد نقل ابن سلام عن أبى عمرو بن العلاء قولته المشهورة : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[1] . وأورد ابن فارس فى كتاب

---

(١) الشعر والشعراء ص ٨ طبعة صبيح .

« الصاحبى »[1] أنه « زعم قوم من العرب أن العرب العاربة لم تعرف نحواً ولا اعرابا ولا رفعاً ولا نصبا ولا همزا » ، وذكر فى هذا المجال قصة عن وفود زيد بن عبدالله بن دارم على بعض ملوك حمير «فألفاه فى متصيّد له على جبل مشرف، فسلم عليه وانتسب له ، فقال له الملك : ثِبْ ، أى اجلس . وظن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل فقال : لتجدنى أيها الملك مطواعا . ثم وثب من الجبل فهلك ، فقال الملك : ما شأنه ؟ فخبروه بقصته وغلطه فى الكلمة ؛ فقال : أما أنه ليست عندنا عربيت ، من دخل ظفار حمّر . وظفار المدينة التى كان بها ... أراد : من دخل ظفار فليتعلم الحميرية » .

من هذه الأحاديث وأمثالها يتبين لنا أن العرب أدركوا فرق ما بين لغة عرب الشمال وعرب الجنوب . وهم يزعمون من جانب آخر أن اللغة العربية الخالصة انما نشأت فى بنى قحطان حين اختلط اسماعيل باحدى قبائلهم كما ذكرنا . فاللغة العدنانية مأخوذة فى الأصل من لغة عرب اليمن . ولكن الأمر الذى لا ريب فيه أن الخلاف كان شديدا بين اللغتين ؛ فقد عثر على نصوص بها نقوش باللغة الحميرية لا تدع مجالا للشك فى مخالفتها للغة العدنانية فى ألفاظها وقواعد نحوها .

والواقع أننا لا نستطيع أن نضع حدودا جغرافية واضحة تفصل شمال الجزيرة عن جنوبها ، وتبين لنا من أين والى أين كانت منطقة انتشار القسم الجنوبى من اللغة العربية ، ومن أين والى أين سارت اللهجات الشمالية من العربية .

وليس هناك من شك فى أن اللهجات الشمالية قد أخذت قبيل الاسلام تتمتع بنفوذ كبير على سائر لهجات الجزيرة ؛ فى حين أخذت لغة اليمن تضمحل حتى كادت تندثر فى أواخر القرن السادس الميلادى . وكان مما أعان على سيادة لغة الشمال التدهور الاقتصادى والسياسى الذى ألم ببلاد اليمن ، وانتقال التجارة الى أيدى قريش . فمنذ ذلك الحين أخذت لغة العدنانيين تتمتع بسلطان بعيد على لغات الجزيرة ، ولم يكن هذا السلطان للغة قريش وحدها كما يتوهم بعض مؤرخى الأدب . وأخذت اللهجات العربية تتقارب وتتداخل ، وقد أعان على هذا التقارب عوامل شتى أبرزها اجتماع العرب فى مكة لقضاء مناسك الحج ، واجتماعهم فى الأسواق والمواسم التى كانت صبغتها تجارية وأدبية معا ، وكان

(١) الصاحبى ص ٢٢

أكثرها بالحجاز حاضرة التجارة ، كسوق عكاظ قرب الطائف ، وذى المجاز وذي المجنة قرب مكة . فلا جرم أن تسود لغة الشمال وتتقارب اللهجات العربية .

ولكن توحد اللغة العربية لم يكن متاحا الا بتوحيد الأمة العربية . وهذا ما حدث فعلا بظهور الاسلام ونزول القرآن بلغة قريش . فقد تمّت بنزوله سيطرة لغة الشماليين . وقريش خاصة ، على سائر اللهجات العربية التى أخذت فى الانقراض . والقرآن هو الذى ضم شتات اللهجات العربية فى لغة قريش ، الا أنه ظلت بعض اللهجات القوية حية بعد الاسلام كلغة تميم . ثم تكونت من لغة قريش ، ومما بقى حيا من اللهجات العربية ، ومن الألفاظ الدخيلة المعربة ، هذه اللغة العربية التى تضمها معاجمنا والتى نسميها العربية الفصحى .

(ب) عوامل نموها :

لعلك لاحظت مما سقناه فى الكلام عن نشأة اللغات ميلنا الى المذهب الوضعى ، والقول بأن اللغة وليدة الاصطلاح والمواضعة ، وليست وحيا ولا توفيقا . وهى بهذه المثابة لم تخلق كاملة تامة ، بل كانت تتكون من الارتجال والمحاكاة حتى تبلغ حالة من الحياة تجعلها أداة صالحة للتفاهم الضرورى . ثم يتناولها بعد ذلك من دواعى الارتقاء وعوامل النمو أسباب كثيرة نجملها فيما يلى :

١ — التفئيم : وهو زيادة حرف أو أكثر فى صدر الكلمة أو وسطها أو نهايتها وهذه أول مرحلة من مراحل نمو اللغة . فقد رجحوا أن الأصول الأولى للغة العربية ولسائر اللغات أصول ثنائية ، على نقيض ما ذهب اليه لغويّو العرب القدماء من أنها ثلاثية[1] ، ثم زيد فى هذا الأصل الثنائى حرف أو أكثر فى أول الكلمة أو فى وسطها أو فى آخرها للدلالة على معان متفرعة من المعنى الأصلى . مثال ذلك للزيادة فى الوسط : من الأصل الثنائى (لم) نجد : لدم ، لطم ، لكم لتم ، لثم ... الخ وكلها تدل على الضرب ، الا أن كلا منها يدل على نوع منه . ومثال للزيادة فى الآخر : قطّ ، قطع ، قطف ، قطل ، قطم ... فكلها لأنواع مختلفة من القطع . ومثال للزيادة فى الأول : أله ، بله ، تله ، دله ، عله ، وله ... وكلها تدل على معنى التحير والجزع .

---

(١) انظر المزهر للسيوطى ٢٠٧/٢

ولبعض اللغويين العرب القدماء كابن جنى فى « الخصائص » والزمخشرى فى « أساس البلاغة » لفتات دقيقة الى ما يقـوم بين الألفاظ من الاشتراك فى المعنى حين تشترك فى حروفها أو تتشابه .

٢ — القلب المكانى : وهو تقـديم حرف أو تأخيره من حروف اللفـظ الواحد ، مع المحافظة على معناه ، أو انحرافه قليلا عن أصله . ومن ذلك قولهم : جذب ، وجبذ ، ولطم ولمط ، وسكب وسبك . وكل هذه بمعنى واحد ، أو بمعان متقاربة . وكذلك قولهم : بعض وبضع ، وكلاهما بمعنى قطع . ويقولون : صاعقة وصاقعة ، ورجل شائك السلاح وشاكى السلاح .

ويحدث القلب فى اللسان اعتباطا فى الغالب ، وقد يكون سببه التخفيف فى اللفظ أو التفنن فيه . ومثل ذلك كثير الحدوث فى لغتنا العامية ؛ فيقولون ملعقة ومعلقة ، ويقولون « جوز » بدل زوج ، ويقولون « أجا » فى جاء . وقد يختلف المعنى مع القلب وقد لا يختلف .

٣ — الابدال : وهو وضع حرف مكان آخر يقرب منه لفظا . ويقع غالبا بين الحروف التى من مخرج واحد ، أو من مخارج متقاربة ، وهو أعظم أثرا وأوسع دائرة . وأمثلته كثيرة فى لغة العرب ، مثل : الخثالة والحسالة والخفالة للردىء من كل شىء ، واستعدى عليه واستأدى بمعنى طلب الى الحاكم أن ينصفه منه ، وغير ذلك من الأمثلة .

والابدال فى الغالب نتيجـة علة طبيعية فى أعضاء النطق فى أول الأمر ، ثم يصيّره الاستعمال مستقلا عن الأصل ، وان حفظ معنـاه ، أو تغير عنه بعض التغيير وربمـا جعلوا لكل نوع من الألفاظ الحادثة ما يقابله من تنوعات المعنى الأصلى ، فيقولون مثلا : لطم اذا ضربه بكفه مفتوحة ، ولدمه اذا ضربه بشىء ثقيل . كما يقولون فى قضم : أكل بأطراف الأسنان ، أو أكل خشنا ، وخضم : أكل رطبا ، أو أكل بأقصى الأضراس . ومن نحو هذا ما نجده فى اللغة العامية المصرية ، فانهم يجعلون من لفظ « ثقيل » بالثاء المثلثة لفظين ، لكل منهما معنى مستقل ، فقالوا : « سقيل » بالسين بمعنى ثقيل الظل ، وقالوا : « تقيل » بالتاء المثناه بمعنى رزين ، وقالوا فى « ثبات » « سـبات » بالسين بمعنى الجلد والصبر ، وقالوا « تبات » بالتاء بمعنى صفاقة الوجه .

٤ — النحت : وهو صوغ كلمة من كلمتين أو أكثر نحو عبشمي وعبقسى وعبدرى ، أى منسوب الى عبد شمس وعبد قيس وعبد الدار . وكقولهم « بسمل » اذا قال : باسم الله ، و « حوقل » اذا قال : لا حول ولا قوة الا بالله ، و « حمدل » اذا قال : الحمد لله ، و« حسبل » اذا قال : حسبنا الله ، و « سبحل » اذا قال : سبحان الله . ومثلها « الطلبقة » و « الدمعزة » فى أطال الله بقاءك ، وأدام الله عزك[1] ...

وفائدة النحت اختصار الألفاظ وتوفير الوقت وتسهيل النطق ، وهو مع ذلك نماء فى اللغة ، لأنه زيادة فى عدد كلماتها وتكثير لطرق التعبير فيها . ويرى بعض علماء اللغات أن الحروف انما هى بقايا ألفاظ لها معنى فى نفسها ، وأنها انما صارت حروفا بعامل النحت ... ومن ذلك حروف المضارعة ؛ فانهم قالوا انهم أخذوا الهمزة من (أنا) ، والنون من (نحن) ، والتاء من (أنت) ، والياء من (هى) ، وجعلوا الحروف دليلا على ما كانت تدل عليه الأصول تقريبا ، فأدت المعانى مع اختصار اللفظ .

ورجحوا أن الأصل فى استعمال باء الجر كان للظرفية ، لأنها لا تستعمل فى اللغات السامية الا لها . وقالوا ان أصلها (بيت) ، بدليل أن هذه فى السريانية معناها فى أو بين ، ثم صارت (بى) فى الكلدانية ، ثم الباء وحدها فى العربية ، فكأن الباء بقية لفظ (بيت) أدى بها المعنى مع اختصار اللفظ[2] .

ولم يعد لأحد من المتكلمين بالعربية الآن حق فى استعمال الأسباب السابقة من عوامل نمو اللغة فى وضع ألفاظ جديدة على هذا النحو ، لأن ذلك — على ما يقولون — حق خاص بالعرب وحدهم ، وقد انقضى دهر منذ القرن الثانى للهجرة . وان لك أن تقول حينئذ ان أكثر اللغات الحية قد يفضل اللغة العربية من هذه السبيل لخلوص هذه اللغات من قيود الصبغة الدينية التى دعت أهل العربية الى المحافظة على صورتها الموروثة ، استبقاء لطريق الشريعة ، وحرصا على سلامة الكتاب والسنة اللذين هما عماد الملة وقوام الاسلام .

---

(١) انظر كتاب « الاشتقاق » لابن دريد ص ١٦٢ وما بعدها .

(٢) ارجع الى كتاب : تاريخ اللغات السامية ص ٢١

ولئن فاتنا الشيء الكثير من هذا فلن يفوتنا ما نتعوض عنه من وسائل أخرى نذكر منها ما يلى :

٥ — الاشتقاق : واللغة العربية من اللغات الاشتقاقية ، ويعتبر الاشتقاق من أهم العوامل فى نمو اللغة واتساعها ، وقد بنى على مقاييس ثابتة . وهو أداة المجامع اللغوية حين تقصد الى وضع مصطلحات جديدة . ويحسن أن يصدر ذلك عن نخبة من حملة اللغة ورجال العلم وأهل الصناعات المختلفة يمكن أن يثمر مجهودهم ما يعد كفاية للحاجة على قدر المستطاع .

والاشتقاق معروف ، وهو أخذ كلمة من كلمة تشترك معها فى مادتها وتركيب أكثر حروفها ؛ كصيغ الفاعل والمفعول والزمان والمكان والأداة ، وغير ذلك من ضروب الاشتقاق .

٦ — المجاز : ان الكلمة لا تحتفظ بمعناها الأصلى ، بل سرعان ما يكسبها الاستعمال معانى أخرى مجازية يتصل بالمعنى الأصلى بصلات أبرزها المشابهة ، وهو ما يعرف بالاستعارة ، وقد تكون العلاقة غير المشابهة ، ويكون ذلك فى المجاز المرسل . واذا شاع استعمال المعنى المجازى لغرض من الأغراض صار بمثابة الحقيقة ، لا سيما اذا لاحظنا أن أكثر الألفاظ كان يدل فى أول نشوئه على المعانى المادية ، ثم صار يدل على المعنويات ؛ كلفظ العقل مثلا ، فانه من عقل البعير أى ربطه ، وكلفظ الرحم بمعنى القرابة ، ثم الرحمة ، فهما من رحم المرأة . وقد ضاعت الأصول الأولى لكثير من الألفاظ ، ولم تبق الا المعانى المشتقة منها .

٧ — التعريب : أخذت اللغة العربية منذ أقدم الأزمان ألفاظا كثيرة من لغات الأمم المجاورة ، برغم انعزالها النسبى . وفى شعر بعض الجاهلين ، والأعشى خاصة ، وفى القرآن الكريم طائفة كبيرة من الألفاظ المعربة نحو : استبرق ، وجهنم ، وزنجبيل ، وطوبى ، وكافور ... الخ[1] .

---

(١) يمكنك الوقوف على كثير من الألفاظ الدخيلة فى القرآن بالرجوع الى كتاب الاتقان للسيوطى جـ ١ ص ١٤٢ وما بعدها ، وكتاب المعرب للجواليقى ص ٤ ، ٥

ولا تنفرد اللغة العربية بالاخذ عن اللغات الأخرى ، بل هو أمر تشترك فيه اللغات جميعا . وينجم من اتصال الأمم بعضها ببعض من طريق المجاورة ، أو التجارة ، أو الحرب . او غير ذلك من أسباب الصلات .

٨ — الاصطلاح : أضيف الى اللغة العربية طائفة كبيرة من المصطلحات ، ولعل من أقدمها تلك المصطلحات التى جاء بها الاسلام ، كلفظ الاسلام نفسه ، والصلاة ، والزكاة . والكفر ، والصيام ، والنفاق ، وغيرها من الألفاظ التى أوجدها الاسلام معانى جديدة غير معانيها الأولى .

(جـ) خصائصها :

يذكر اللغويون خصائص تمتاز بها اللغة العربية ، فهى تمتاز من اللغات السامية باشتمالها على عناصر جدّ قديمة تمتّ الى الساامية الأم . ولهذا يرى بعض المستشرقين مثل الأستاذ « أولسهوزن Olshausen » أن العربية أقرب أخواتها الساميات الى اللغة الأم[١] . وربما كان لانعزال الأمة العربية الى حدّ ما فى جزيرتها التى تحف بها الصحارى والبحار ما يقوى هذا الرأى . ولكننا لا نستطيع اعتبار هذا الرأى يقينا علميا ثابتا لعدم توافر الأدلة .

ولعل من الخصائص التى تمتاز بها اللغة العربية الأمور الآتية :

١ — الاعراب : وهو من صفات العربية قديما وحديثا . ولا عبرة بقول من يقول ان من العرب من كانت له عامية ملحونة[٢] ، فان ذلك على فرض وجوده قد يكون قليلا نادرا لا يعتد به . ولا يمنعنا ذلك من التسليم بأن لغة العامة من قبائل العرب لم تكن من القوة والفصاحة فى مرتبة لغة الخاصة من الشعراء والأشراف .

ويبدو لنا أن اللغة العربية لا تنفرد بخصيصة الاعراب ، فقد كانت بعض اللغات القديمة تعرف الاعراب[٣] . ولا تزال تعرفه من اللغات الحاضرة الألمانية

(١) نشوء اللغة العربية لانستاس الكرملى ص ٨٢
(٢) انظر كتاب الأصول العربية لأسد رستم ص ١١٠
(٣) انظر ككتاب اللغة العربية كائن حى لجورجى زيدان ص ١٨

والجنسية . وتكاد تنسلخ عنه الألمانية على مرور الأيام . ولكن اللغة العربية سوف تحتفظ به الى يوم الدين .

٢ — دقة التعبير فى الألفاظ والتراكيب : أما فى الألفاظ فيكاد يوجد عندهم لكل معنى من المعانى وأجزائها لفظ خاص . فقد استوعبوا كل ما أحاط بهم ، فاطلقوا عليه اسما يميزه ، كاجزاء الحيوان والانسان والنبات والطير والليل والنهار ، فجعلوا لكل جزء منها لفظا يخصه ... فساعات النهار مثلا : الذرور ، فالبزوغ فالضحى ، فالغزالة ، فالهاجرة ، فالزوال ، فالعصر ، فالأصيل ، فالصبوب ، فالحدور ، فالغروب . وهى أيضا : البكور ، فالشروق ، فالاشراق ، فالرأد ، فالضحى ، فالمتنوع ، فالهاجرة ، فالأصيل ، فالعصر ، فالطفل ، فالحدور ، فالغروب . وساعات الليل : الشفق ، فالعتمة ، فالسدفة ، فالفحمة ، فالزلكة ، فالبهرة ، فالسحر ، فالفجر ، فالصبح ، فالصباح[1] .

ومن ذلك تفرع المعانى من الفعل الواحد ، ونذكر مثلا لذلك فعل « النظر » ، فانه يتفرع الى رمق ، ومعناه نظر الى الشىء بمجامع عينيه ، ولحظ : أى نظر من جانب أذنه ، ولمحه : نظر اليه فى عجلة ، وحدجه : رماه ببصره مع حدة ، وشفن : نظر كالمتعجب أو الكاره فان أدام النظر فى سكون طرف قيل رنا ... الى غير ذلك مما نراه مبسوطا فى كتب اللغة عامة ، وفى المخصص لابن سيده بنوع خاص .

وكذلك دقة التعبير فى التراكيب واتيانها على مقتضيات الأحوال . وربما كان من أبرز ذلك مزيدات الأفعال وصيغ المشاركة ، وهذا من خصائص اللغة العربية . ذلك أنه يمكن التعبير باللفظ الواحد عن معنيين أو جملة معان لا يتأتى التعبير عنها فى غير العربية الا بعدة ألفاظ ، مثل تقاضوا وتقابلوا .

وينبغى ألا ننسى أن بيئة العرب كانت قليلة التنوع ، فهذه الدقة محدودة فى نطاق ضيق ، حتى لقد اضطر العرب منذ الاسلام أن يعربوا كثيرا من الألفاظ التى لا عهد لهم بمسمياتها .

---

(١) انظر الجزء الثانى من المزهر للسيوطى .

٣ — الايجاز : والعرب أقدر على هـذا النوع من البيان من غيرهم من الأمم التى لا تخلو بلاغتها من شىء منه . وقد تصل العبارة من القصر الى حد الايماء والاشارة ، مع اشتمالها على المعنى ووفائها بالغرض ؛ كالمثل والحكمة . وقلما تكون لغة من لغات العالم كالعربية فى هذين الأمرين .

٤ — الترادف والتضاد : وقد فاق العـرب فيهما سائر الأمم ؛ فعندهم للمطر والريح والنور والظلام والأسد والسيف والناقة والخمر والماء والبئر أسماء كثيرة ؛ من عشرين فى بعضـها الى ثلثمائة فى بعضها الآخر ، وكذلك الشأن فى الأوصاف ... فللطويل والقصير والكريم والبخيل والشجاع والجبان ألفاظ كثيرة يعبَّر بها عنها تعدّ ثروة واسعة فى اللغة ومفرداتها .

ويرى بعض المحققين أن هذه الأسماء المترادفة كانت فى الأصل نعوتا لأحوال المسمى الواحد وظواهره ، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج ، وكادت تتجرد هذه الألفاظ من تلك الفروق والأوصاف بالاستعمال وغلبت عليها الاسمية[1] .. فان الخَطَّار والخَطَّام والباسل والأصْيد من أسماء الأسد ، ولكل منها وصف خاص مغاير لمـا يدل عليه الآخر . وكذلك ما يعد من أسماء السـيف كالمصمّم والصمصام والهندى والهندوانى والحسام والعضب وغير ذلك .

وقد يرى بعضهم أن الترادف أصله فى العربية لغات لقبائل مختلفة ، ولم يراع نقلة اللغة التنبيه على أكثره لعدم الوثوق من الدليل عليه .

والترادف عتاد الشاعر والكاتب والخطيب والأسـتاذ عند محاولة البسـط والترغيب فى فضائل الأمور والبلوغ الى تقريب الغامض من حقائق الأشياء ، وتكشيف المعانى المبهمة بعرضها فى جملة صور من التعبير تعين على تجليتها للفهم ورسوخها فى النفوس .

وأما التضاد ، وهو دلالة اللفظ على المعنى وضده ، فهو من خصائص اللغة العربية ؛ كالجَوْن للأسود والأبيض ، والجلل للعظيم والحقير ، والشَّف للزيادة والنقصان ، والصَّريم للصبح والليل المظلم . وفى اللغة مئات الألفاظ من هذا ونحوه يدل كل واحد منها على الشىء وضده . وينبغى أن يلاحظ فى التضاد أيضا

---

(١) ارجع الى كتاب علم اللغة للدكتور على عبد الواحد .

اختلاف الوضع كما سبق ، لان الاصل فى وضع اللفظ ان يكون أداة للفهم ، لا وسيلة الى الابهام والتعمية .

٥ — الاشتراك اللفظى : اى دلالة اللفظ الواحد على المعانى الكثيرة . وقد يكون هذا من عيوب اللغة وقصورها ، الا اذا استطاع المتكلم أن يجد لهذه المعانى دوالّ أخرى مستقلة غير هذا المشترك اللفظى . فقد قدمنا أن الانسان فى بدء نشأته كان يعبر باللفظ الواحد عن المعانى الكثيرة ، وكان ذلك من معانى العجز فى اعتبار علماء اللغة عن ايجاد الكميات اللفظية لهذه المعانى ، اذ كانت اللغة لا تزال حينئذ فى طور الوجود الأول تقريب . واذن لا ينبغى أن يعد الاشتراك اللفظى دليلا على رقى اللغة الا على هذا النحو الذى قدمناه . ومن ذلك مثلا كلمة الروح : فهى ما به الحياة ويؤنث ، والملك ، والوحى والقرآن ، وجبريل ، وعيسى . ومن ذلك كلمة العين : فهى للباصرة ، والجارية ، والسحاب ، واليد ، والدينار ، والذهب ، والجاسوس ، والكبير من القوم ، والمشهور من الناس والأشياء . وكذلك كلمة الخال : فهى لأخى الأم ، واللواء ، والظن ، والكبر ، والشامة .. وغير ذلك كثير فى اللغة نكتفى منه بما ذكرنا .

(د) اختلاف اللهجات :

اتفق علماء اللغة على أن معنى اختلاف اللهجات يرجع فى جملته الى ثلاثة أوجه ، ويلاحظ أن العلماء كثيرا ما يضعون اللغة مكان اللهجة .

الأول : ما يمكن من تنوع المنطق واختلاف كيفية النطق باللفظ ، وهو أهمها. ويرجع سببه فى الغالب الى البيئة الخاصة وتأثير الوراثة ، كالذى يرى الآن فى القرى المتجاورة والمتباعدة فى أعلى مصر وأسفلها . ومن أمثلة ذلك قول بعضهم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما ترى فى رجل فلحتّى بضبى » ، فقال له : وما عليك لو قلت : ضحتّى بظبى » ، فقال : انها لغة بكسر اللام ، فكانت هذه أعجب[1] .

الثانى : ما يكون من اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختلاف اللغات ، وقد أشرنا الى ذلك فيما سبق . ومن ذلك أن أبا هريرة رضى الله عنه لما قدم من دوس

---

(١) انظر كتاب البلغة لصديق خان ص ٦٧

« وهى بطن من الأزد اليمانية » عام خيبر لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ناولنى السكين ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم المراد ، فكرر له القول حتى قال : آلمدية تريد ؟ وأشار اليها ، فقيل له : نعم ، فقال : أو تسمى عندكم سكينا[1] ؟

الثالث : ما يكون قد انفرد به عربى ، مع اطباق العرب على النطق بخلافه . وليس لهذا النوع شأن يذكر لجواز أن يكون ذلك قد وقع لهذا العربى من لغة قديمة طال عليها العهد ، وبادت آثارها .

واذن يكون التعويل فى اختلاف اللهجات على الوجه الأول ، وهو لا يتعدى صورة النطق بالكلام ... ويلحقها فى بعض الأحيان ابدال حرف بآخر ؛ كابدال الميم باء والباء ميما فى لغة مازن ، اذ يقولون : با اسمك ؟ مكان : ما اسمك ؟ ويقولون[2] : مكر فى بكر ، وكتردد الكلمة بين الادغام والفك ، وبين الاتمام والنقص ، أو بين الصحة والاعلال ، والاعراب والبناء ... فمثلا أهل الحجاز يفكون المضارع المضعّف المجزوم بالسكون وأمرَه ، وتميم تقولهما بالادغام . وخثعم وزبيد تنقص نون «مِن» الجارّة ، فيقولون : خرجت مِلْبيت ، كلغة عامة أهل مصر فى قولهم : خرجت من البيت ، وغيرهم من العرب يتمها . وطيىء تُعِلّ الأفعال الثلاثية التى من باب فرح ، كبقى ورضى بقلب يائها ألفاً وكسرتها فتحة ، وغيرهم يصححها . وقيس بن ثعلبة تعرب لدن ، وغيرهم يبينها .

هذا الى أنه قد كان لكل قبيلة عيب فى النطق ، اشتهر منه : عجعجة قضاعة ، وهى جعل الياء بعد العين جيما ، مثل قولهم : الراعج فى الراعى .. وطُمْطمانية حمير ، وهى جعل أمْ بدل ال ، وبلغتهم الحديث الشريف : « ليس من امبرّ امصيام فى امسفر » ، أى ليس من البر الصيام فى السفر .. وتلتلة بَهراء . وهى كسر أحرف المضارعة مطلقا ... وفحفحة هذيل ، وهى جعل الحاء عينا ، مثل : العَسَن فى الحَسَن ، واللعْم فى اللمم .. وعنعنة تميم ، كقولهم فى أن عن ، بابدال الهمزة المبدوء بها عينا ... وكشكشة أسد وربيعة ، وهى ابدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث مثل : عليشِ فى عليكِ ... وكسكسة هوازن ، وهى

---

(١) الاقتضاب فى شرح ادب الكتاب لابن السيد البطليوسى ص ١٨١

(٢) انظر فى ذلك مقدمة ابن خلدون ، والمزهر للسيوطى .

زيادة سين بعد كاف المؤنث ، فيقولون : أعطيتُكِس و منكِس ... ولَخْلَخانية الشِّحْر ، كقولهم : مشا الله ... واستنطاء أسد ، كقولهم : أنطى فى أعطى بجعل العين الساكنة نوناً مع الطاء ... وشنشنة اليمن ؛ وهى جعل الكاف شينا مطلقا نحو : شلمنى فى كلمنى ، واتّبْيش فى لبَّيك ... وقُطعة طيىء ، وهى حذف آخر الكلمة ، فيقولون : يا أبا الحكا فى يا أبا الحكَم ؛ كما فى لغة كثير من أقاليم مصر .

هذا وقد أتى تهذيب اللغة فى أدواره المختلفة على أكثر هذه الهنوات الا ما كان منها تابعا لتأثير البيئة ، فقد بقى منه شيء حتى بعد ظهور الاسلام . ولا يزال مثل هذا الاختلاف يوجد بين طبقات المتكلمين باللغات من جميع الأمم المختلفة .

(هـ) أطوار تهذيب اللغة وعوامله :

ليس من المعقول أن تكون اللغة ــ كما يقول بعضهم ــ قد برزت الينا من غيب التاريخ ناضجة كاملة مهذبة . ومن المحقق أنها تقلبت فى أدوار مختلفة وأدهار طويلة ، تنازعها فيه ما يتنازع الأحياء الحادثة من عوامل الضعف والقوة وأسباب الرقى والانحطاط . ومن العبث أن يتطاول انسان الى تحديد الزمن الذى تمثّلت فيه اللغة بصورتها المروية لنا . وكل ما يقال فى ذلك يراعَى فيه تقريب هذه الحقيقة الى التصور على وجه من وجوه تغليب الظن ليس غير . ومما لا شك فيه أيضا أن هذه اللغة قد تعرضت لعوامل الاندماج والتقارب بامتزاج بعض شعوبها فى بعض ، ولاتحاد أكثر قبائلها فى كثير من دواعى المعيشة وأساليب الحياة ، ولَمَا كان بينهم من الأواصر القوية فى الجنس وطبيعة البيئة والعادة .

وذلك ــ بجانب ما تناول هذه اللغة من أسباب التهذيب التى سنذكرها بعد ــ قد أدى كله الى تخلّصها من الاختلافات ونقائها بالتدريج من الوحشية والغرابة ، وصيرورتها الى درجة من الوحدة والعذوبة صلُحت فيما بعد لأن ينزل بها كتاب الله آيات مفصلات قد استوعبت أدق أسرار الاعجاز ، واشتملت على أعلى مراتب البيان والفصاحة . ويرجح الباحثون أن من بين هذه الأسباب[1]:

(١) اللغة العربية كائن حى لجورجى زيدان ص ٤٨

١ ــ تنقيح اسماعيل عليه السلام ، وهو أصل العربية العدنانية كما ذكرنا . ولا يبعد أن يكون ذلك الهاماً الهياً خص الله به نبياً من أنبيائه ، أو يكون ذلك على الأقل ناجما عما امتاز به ذلك الأب العربى عن سائر أهل عصره من سلامة الفطرة وقوة الذكاء وحسن الاختيار والتتبع ، مع ما يلحق بذلك من تطاول الزمن الذى هو وعاء طبيعى لبلوغ الكائن الحى درجة من الكمال فى تدرجه الى الارتقاء . واقترن ذلك الوقت بظهور اسماعيل عليه السلام ، ثم درج العرب بعد اسماعيل على هذا السنن الفطرى من الانتقال فى مدارج النمو والتحسين . وقد اشترك فى هذا التهذيب أكثر القبائل العربية ، اذ كان بعضهم يأخذ من بعض بالمخالطة والاجتماع فى أيام وقائعهم ، وعند تلاقيهم فى الانتجاع ، وخروجهم فى المنافرة الى الحكام ، واحتشادهم للمفاخرة بالأحساب والأنساب . وكان للشعراء من هذا الاصلاح نصيب لا يقل عنه ما كان للأشراف من خطباء العشـــائر فى محاكاة العامة لهم ، واجتهادهم فى مساماة ألسنتهم ، حتى نشأ بينهم التنافس فى احكام اللغة والمفاخرة بالبيان . ويمكننا أن نعتبر ذلك الدور الأول .

٢ ــ وكان الدور الثانى هو استفحال نهضة قريش وتسنّمهم ذروة النفوذ الأدبى ، واستحواذهم على السيادة العامة فى جمهرة القبائل العربية . وقد وصلت لغتهم الى درجة عالية من الفصاحة ، وأخذت بأطراف العذوبة ، وأقبل العرب يحاكونها ويمشون على أثرها ، حتى انتهى آخر ذلك الاصلاح القرشى بظهور الأسواق الأدبية التى كان لقريش فيها أيضا من الفضل ما لها ، اذ كان العرب يرجعون الى منطقهم ، ويتأثرون بعذوبتهم فيما يُعدّونه من القريض وما يحبرونه من الخطب التى يتحاكمون فيها الى قضاة يُصـــدرون عن رأيهم ، ويسمعون لحكمهم فى هذه الأسواق التى أشهرها عكاظ ، وهى موضع بين نخلة والطائف ، وقد أقيمت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة ، وبقيت بعد الاسلام ، وان لم تكن فى شأنها الأول ، حتى نهبها الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة . وكانت تقوم هلال ذى القعدة الى عشرين منه ، ثم ينتقل العرب منها الى مَجَنَّة ، وهى موضع قرب مكة ، ثم الى ذى مجاز ، وهى على فرسخ من عرفة ، فيكونون بها الى أيام الحج .

وكان الأشراف من العرب انما يحضرون الأسواق القريبة من أحيائهم الا عكاظ ، فانهم كانوا جميعا يتوافدون اليها لمفـــاداة أسراهم ، والتحـــاكم فى خصوماتهم ، وللمفاخرة بالأحساب ، والتباهى بصفات الفضائل : من الكرم والشجاعة والفصاحة والجمال والأشعار والخطب . وفيها أنشد عمرو بن كلثوم مطولته فيما يقول بعض الرواة . وكان للنابغة الذبيانى قبة تُضرب له يتحاكم اليه فيها الشعراء ، كما هو معروف ، وقصـــته مع الأعشى والخنساء وحسان مشهورة . وفيها خطب قس بن ساعدة الأيادى خطبته المشهورة ، وقد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على جمل أورق .

وقد كان هذا الاجتماع العام مظهرا جميلا من مظاهر الحضارة ، يقتضى طبعا تجويد المنطق ، وارهاف اللسان ، والمبالغة فى اتقان صناعة الكلام ، والاجتهاد فى مقاربة العذوبة فى لغة قريش التى لم يقتصر فضلها على حمل العرب فى جملتهم على اتباع مناهجها والتأثر بأسلوبها ، بل كانت لا تزال تشهد هذه المواسم وتسمع من فصحاء البادية وشعراء القبائل فى هذا الدور الأخير من التهذيب ، حتى بلغت لغتها الى أرفع مراتب الكمال اللغوى فى هذا العصر .

* * *

وبعد ، فهناك حقيقة خليقة بالذكر ، وهى أننا نلاحظ أن اللغة العربية تكاد تكون أقل اللغات تطورا على ممر العصـــور . ومرد ذلك أنها لغة القرآن ، والقرآن ، فضلا عن كونه كتاب المسلمين الأقدس ، هو كتاب العربية الأول ، ونموذج رائع معجز ، تعنو له جباه أساطين البلاغة والبيان . كل ذلك جعل لغة القرآن تصبح قدوة الكُتّاب ورائد الأدباء فى كل عصر ، مما حال دون أن يلمّ باللغة العربية كبير تطور كذاك الذى أصاب سائر اللغات العالمية ، ومما باعد بين لغتنا الفصحى ولغاتنا العامية المتطورة .